خطبة صلاة الجمعة 18/ 11/ 2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(مفهوم أولياء الله تعالى)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا﴾ [الفجر: 15-17] قال المفسرون: (ردَّ الله على من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة، فأخبر أن الإكرام بطاعته والإهانة بمعصيته). فصححت الآية مفهوماً خطأ.

أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟ قَالَ: قُلْنَا: الَّذِي لَا يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ قَالَ: لَيْسَ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»**.

وفي رواية قال: **«فما تعدُّون المفلس فيكم؟»** قلنا: من لا مال له، قال: **«ليس بذلك، ولكنه الذي يأتي يوم القيامة بحسنات، ويأتي قد ظَلَم هذا، وشتم هذا، وأخذ مال هذا، وليس هناك دينارٌ ولا درهمٌ، فيعطَوْن من حسناته ولا يَفي، فيؤخذ من سيئاتهم فيطرح عليه»**.

ففي الحديث توضيح وتصحيح نبوي لمفهومي الصرعة والمفلس.

وفي القرآن والسنة من أمثال هذا في تصحيح المفاهيم كثير.

أيها الإخوة:

التصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

فتصورات الإنسان ومفاهيمه تنعكس في حياته سلوكاً وسكوناً، وأعمالا وأقوالاً، وعطاءً ومنعاً.

فمن تصور المعنى الحقيقي للذهب حافظ عليه وضن به، بينما من تصور أن الذهب معدنٌ خسيس فرط فيه وضيعه؛ فالتصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

هذه الخطبة السابعة من سلسلة خطب عنوانها: (مفاهيم تحتاج إلى تصحيح) جاءت لتصحيح مفاهيمنا لبعض المصطلحات الشرعية والحياتية، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه. والله الموفق.

عنوان خطبة اليوم:

مفهوم أولياء الله تعالى

كان يقرأ في كتب التراجم أن إبراهيم بن سعد كان يمشي على الماء، فجعل يقول في نفسه إن مثل هذه الولاية لم نرها في هذه الأزمنة، فلا حول ولا قوة إلا بالله لقد انتهى عصر الأولياء.

ترى هل صحيح ظنّ هذا الأخ وبأن عصر الولاية انتهى بأن الولاية مشي على الماء وطيران في الهواء؟!

يظن عماد أن الولي رجل طاعن في السن أبيضُ اللحية عاكفٌ على مصحفه في مسجده، ترك الحياة وزهرتها واعتزل الأحياء وفتنتها.

ومن أجل هذا الظن لا يرى عماد نفسه مستعداً لأن يكون من أولياء الله تعالى فالتجارة مهنته والسفر دأبه، فكيف تجتمع التجارة والولاية، ثم إنه شاب لم يبلغ الثلاثين بعد!

ترى هل صحيح ظنّ عماد بأن الولاية لا تكون للشباب بل للطاعن في السن وحسب! وهل صحيح اعتقاده بأن التجارة لا تجتمع مع الولاية، وبأنّ الولي رجل معتزل الحياة والأحياء؟!

أراد ماجد أن يتخذ لنفسه شيخاً يتأسى به ويتأدبُ بآدابه، فراح يبحث عن شيخ ينبئه بما في غد أو يحدثه بما في خاطره من قبل أن يكلمه، ويريده أن يكون بلا عيب ولا خطأ، ولما لم يجد ذاك الشيخ تأسف على انقراض عصر الولاية، وقرر ألا يلتزم عند أحد من الشيوخ!

ترى هل صحيح ظن ماجد بأن الولاية عصمة عن الأخطاء، وبأنها إخبار الآخرين بعلم الغيب وتحديثُهم بما في خواطرهم! يحدثون عن شيخهم الصالح بحكايات كلها خوارق وبقصص كلها كرامات، ويستدلون على ولايته بكراماته، ولا يذكرون شيئاً عن انضباطه بأوامر الشرع ونواهيه.

ترى هل الولاية وقوع كرامات أو أنها التزام بالمأمورات والمنهيات؟!

أيها الإخوة:

أولياء الله هم كل من أقبل على الله بطاعته واجتناب معصيته، فكافأه ربه بأن قربه منه بالمحبة والهداية والنصرة، وتولى أمره فلم يكله إلى نفسه لحظة، وكفل مصالحه ورعاه بحفظه وتوفيقه.

(وولاية الله تعالى نوعان: عامة وخاصة.

فالعامة: هي ولاية كل مؤمن، فمن كان مؤمناً تقياً، كان الله له ولياً، وفيه من الولاية بقدر إيمانه وتقواه، يدل على هذا قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 68]، وقوله سبحانه ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 257].

والخاصة: هي ولاية القائم لله بجميع حقوقه، الذي يؤثر ربه على كل ما سواه، ويصبح ويمسي وهمه طاعة ربه ورضاه.

وعرف ابن حجر الهيتمي الأولياء فقال: هم القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، بجمعهم بين العلم والعمل، وسلامتهم من الهفوات والزلل. (الفتاوى الهيتمية).

قال ابن عابدين: ولا يقصد بسلامتهم من الهفوات والزلل العصمة، إذ لا عصمة إلا لنبي، ولكن على معنى أن الله يحفظ الولي من تماديه في الزلل والخطأ إن وقع فيهما، بأن يلهمَه التوبةَ فيتوبَ منهما. وإلا فإن الهفوات والزلل لا تقدحان في الولاية، ما دام صاحبهما يرجع عنهما ويتوب منهما.
(الموسوعة الفقهية الكويتية).

وأفضل الأولياء صحابة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ثم العلماء العاملون، قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: (إن لم يكن العلماء العاملون أولياء الله، فلا أعلم لله ولياً) (البداية والنهاية).

ثم المؤمنون المتقون كباراً كانوا أو صغاراً، تجاراً كانوا أو زراعاً، ذكورا كانوا أو إناثاً، ويتفاضلون في ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى. قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 62-63].

هذا، وقد يُظهر الله تعالى على يد الولي أمراً خارقاً للعادة لإكرامه، كما حدث مع سيدنا الخضر عليه السلام في سورة الكهف، ومع السيدة مريم عندما جاءتها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، وكما جرى مع الثلاثة الذين حبسوا في الغار فتحركت الصخرة بين أيديهم، وكما تكلم الطفل الصغير في قصة الراهب جريج وقصة ماشطة ابنة فرعون.

وليست الكرامة شرطاً في الولاية بل شرطها الإيمان والتقوى، ولهذا اتفق أئمة الدين على أن الرجل لو طار في الهواء ومشى على الماء، لم تثبت له ولاية، بل ولا إسلام حتى يُنْظَر وقوفُه عند الأمر والنهي الذي بعث الله به رسولَه صلى الله عليه وسلم. (مختصر الفتاوى المصرية).

وكرامات الأولياء نوعان حسية ومعنوية، فالحسية كالسير على الماء ومخاطبة الجليس بما في خاطره، وخيرٌ منها الكرامات المعنوية وهي المحافظة على الصلوات في أول الأوقات وفعلُ الخيرات وترك المنكرات، ومراقبةُ الأنفاس فلا يخرج نفس ولا يدخل إلا مع ذكر الله.

ومن هنا قال أهل التربية الروحية: الاستقامة عين الكرامة، بمعنى أن أكبر كرامات الأولياء التي يكرمهم الله تعالى بها أن يستقيموا على شرعه وأمره ونهيه.

وبناء على كل ما سبق:

لم يصب من ظنّ أن عصر الولاية انتهى لأنه لا يرى خوارق عادات إذ إن الولاية بالإيمان والتقوى لا بالخوارق، وأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخليها الله تعالى من أهل الإيمان والتقوى.

وليس صواباً اعتقاد عماد أن التجارة لا تجتمع مع الولاية وأن الولاية لحيةٌ بيضاء واعتزالٌ للحياة والأحياء، فكم من تاجر ولي صدق في إيمانه ولزم أوامر ربه ونواهيه، وكم من شاب ولي إذا أمرته الشريعة ائتمر وإذا نهته انتهى.

ويخطئ ماجد عندما يريد شيخاً مربياً معصوماً إذ لا عصمة إلا للأنبياء، ولا يشترط في الشيخ المربي العصمة ولا يشترط ظهور خوارق العادات على يده، وحسبه أن يفتش عمن يوثق بعلمه وتقواه ويلزمَه ليفيدَ منه.

ويبالغ التلامذة أحياناً عندما ينسبون لشيوخهم كرامات وخوارق، ولو اشتغلوا بنقل أخبار انضباط شيوخهم بأمر الله ونهيه، وتخلقِ الشيوخ بأخلاق القرآن واتباعِهِم السنة لكان أنفعَ لهم ولغيرهم ليتأسوا بذلك ويعملوا. والله أعلم

أيها الإخوة:

من الأخطاء التي وقعت في تصور بعض الناس ظنُّهم أن الأولياء رجال كبار هجروا الدنيا واعتكفوا في محاريبهم، فظهرت على أيديهم الخوارق والكرامات، فنتج عن هذا التصور هجر أفرادٍ الحياة والأحياء ليلحقوا بركب الأولياء.

وعلى الطرف الآخر استبعد قوم الوصول لدرجة الولاية فتركوها لأنهم يعملون في مصالحهم الدنيوية، ونتج أيضاً عن هذا التصور الخاطئ للأولياء أن نسب طلاب لشيوخ كرامات كانت أو لم تكن.

وعلى الطرف الآخر نفر من هذه القصص والشطحات رجال فقَلَوا الأولياء وأَبَوا طلب الولاية.

والصواب أن الأولياء كما جاء في القرآن ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 62-63].

فكل مؤمن تقي وليٌّ، ويتفاضلون بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى، وإذا أظهر الله تعالى كرامة على يد وليٍّ أخفاها ولم ينشرها، فإذا نشرها فلرعونة في نفسه. والله أعلم.

أيها الإخوة: خلاصة الخطبة في هذه الكلمات:

مفهوم الولاية بأنها عكوف في مسجد واعتزال للحياة والأحياء، وأنها ظهور خوارق وكرامات وحسب؛ مفهومٌ خاطئ، والصواب في مفهوم (أولياء الله تعالى) الآتي:

1- الولي: هو كل أقبل على الله بطاعته واجتناب معصيته، علماً وعملاً.

2- لا يشترط في الولي العصمة، إذ لا عصمة إلا لنبي، ولكن الولي إذا زلت قدمه ووقع في زلل وهفوة أسرع بالتوبة والرجوع إلى طريق الله.

3- أفضل الأولياء صحابة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم العلماء العاملون، ثم المؤمنون المتقون شيباً كانوا أو شباباً، تجاراً كانوا أو زراعاً، ذكورا كانوا أو إناثاً، ويتفاضلون في ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى. قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 62-63].

4- قد يُظهر الله تعالى على يد الولي أمراً خارقاً للعادة لإكرامه، وقد لا يُظهر، فليست الكرامة شرطاً في الولاية بل شرطها الإيمان والتقوى.

5- كرامات الأولياء نوعان حسية ومعنوية، والمعنوية أفضل؛ وهي المحافظة على الصلوات في أول الأوقات وفعلُ الخيرات وترك المنكرات، ومراقبةُ الأنفاس فلا يخرج نفس ولا يدخل إلا مع ذكر الله. ومن هنا قالوا (الاستقامة عين الكرامة).

أيها الإخوة:

التصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات. ولهذا جاءت سلسلة مفاهيم تحتاج إلى تصحيح، وهذه الخطبة تحدثت عن مفهوم (أولياء الله تعالى)، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه. والله الموفق.

والحمد لله رب العالمين